

«لا تموت ثقافة إلا بسبب ضعفها»  
 أندريه مالرو (1901م – 1976م)  
 كتاب فتنة الغرب

## الفصل السادس

### أي ثقافة نختار لأبنائنا؟

«ليس التلفاز سوى أداة، يمكن أن تسخر للخير أو الشر، ولا أحد يستطيع أن يدعي بطيب نية أنه لا توجد برامج مفيدة تربوية وتكوينية وثقافية!». إن هذه الحجة التي يلجؤون إليها كثيراً لإقناعنا تبدو مقنعة للوهلة الأولى، وتستحق أن نعلق عليها.

أولاً: وبحكم كوننا مدرسين لا يمكننا إلا أن نفخر بجميع التعابير مثل: «تربوي» و «تكويني» و«مفيد» و«ثقافي». وهذا يظهر مدى احترام الناس للمدرسة القائمين عليها بشكل خاص، ولكننا لسنا مقتنعين بأن المؤسسة التعليمية الحالية تستحق دائماً هذا المديح، فعندما نضعها تحت الأضواء، ونراها بأعين الوالدين والصحفيين والأوساط الاقتصادية والسياسة، فإن نوعاً آخرى أقل إطراء تنطلق غالباً عن علم ودراية.

### الثقافة وانعدام الثقافة

وعلى كل حال فالمدرسة ليست موضوع حديثنا، ولنعد إلى أغنام بانورج وراعيتهم (مثل فرنسي يعني العودة إلى الموضوع الأصلي) أي التلفاز! فكلمة «ثقافة» قد أطلقت، وكلما حاولنا أن نتخيل أثراً إيجابياً للتلفاز على

الأطفال، فإننا نسمع الكلمة البديهية ثقافي، ولكن ما الثقافة؟ فكل إنسان عنده فكرته الخاصة، أو مَوَالِه الفكرية الصداح حول الموضوع. حتى لو كانت التعاريف متضاربة أو متناقضة فكل شخص مُحَق، فالثقافة موجودة تحت اللحاء أو بين اللحاء ولب الساق، وفي الشكل أو المضمون، وفي القلب والنفس، وهي أي شيء نعطيه قيمة نابعة من أنفسنا، فمثلاً هناك ثقافة عُمالية و ثقافة فنية و ثقافة فكرية، و ثقافة رأس المال، و ثقافة الشارع، و ثقافة الكوكاكولا.... فهل ماندلسون أكثر ثقافة من إليفيس بريسلي أو فرقة المسدسات والورد بالنسبة لي؟ وبالنسبة لابني؟ وبالنسبة لجارتي؟ وبالنسبة للاجئ سياسي من رواندا؟ أو بالنسبة لدوروتيه أو جان ماري كافادا؟

الثقافة؟ هل هي شبكة أم غربال يستطيع كل إنسان أن يحجز بها ما يريد أو يستطيع حجزه، أو نادراً ما يجب عليه الاحتفاظ به؟

ما الشيء الأهم معرفته؟ اسم آخر زوجة لجوني هاليدي؟ أم نهاية الحلقة 128 من الموديلات الراقية؟ أم نتيجة مباراة كرة القدم المشهورة بين فرنسا وبلغاريا؟ أم اسم عائلة رئيس القوة العسكرية الصربية في البوسنة؟ كل شيء مهم أولاً شيء له أهمية، وذلك يتبع المزاج، وال فراغ والمصلحة والميول... إذاً فلماذا لا نقبل أن يكون هنالك « ثقافة تلفازية » كذلك؟ ولكنها حتماً ليست ثقافة وحيدة وإنما ثقافات، والأفضل استخدام تعبير: عناصر ثقافية، ليس التلفاز سوى «مُسوّدة ثقافة» هائلة، حيث يختلط ويتشابك ويضطرب كل شيء لدى الطفل المهمل المتروك دون اهتمام، كم أعلنها مُدوية حاجة الطفل «للعاب الفاعل» ليتطور بتوازن. فالطفل أمام الشاشة وتتابع صورها لا يمكنه أن يختار منها إلا بناء على

قاعدة من التجارب الشخصية ذات صلة بالواقع، ومبنية على تواصل وحوار مع البالغين، ليبني ما سيكون بالتدرج قيمه وثقافته الراسخة يحتاج الطفل لقواعد متينة ثابتة وخاضعة باستمرار للنقاش والحوار والمواجهة مع الأهل.

وهذه حتماً ليست وظيفة التلفاز، فليس للتلفاز مهمة سوى اللهو ولفت النظر بأي طريقة، وهذا ينطبق على الصغار والكبار، فالتلفاز يشبع بل ويتخم الجميع بحسائه:

قبضة من الفنون، وما يشبه البرامج الأدبية، وملعقة صغيرة من الأفلام الوثائقية، وأباريق من الرياضة، وأوعية لفت من المسلسلات فئة بوج، وقدور من الألعاب، وأي شيء يجذب الجمهور، ومنوعات، وبراميل عروض حية من تلفاز الواقع، هل تقبلون؟ حسناً، أم ترفضون؟ للأسف، وسنحاول أن نحسن الأمور في المرة التالية، وبما أن التلفاز متمسك بك وبهمه أمرك، فهو حريص على أن يعرض عليك ما يعجبك، ويبدو أن ما يُعجب الجمهور في سويسرا وبلجيكا وفرنسا والبلدان الغربية، ليس بالضرورة ثقافة تقليدية مُعترف بها من قبل طبقة اجتماعية وفكرية نخبوية، يشرح برونولوساتو الدقة البالغة لظاهرة الثقافة = الملجأ «في المساء عندما تُبث مقطوعة رائعة لموازير يعزفها كارل بوهم تصل نسبة المشاهدة إلى 2% من الجمهور بالكاد، مقابل 16% في ألمانيا، أما التلفاز الفرنسي المنافس - فيلم عصابات من الفئة ب - فيحصد 60% من المشاهدين، ثم تأتي بعدها وندافع عن الثقافة! حتى كبار المسؤولين في التلفاز الحكومي لا يجروون على الدفاع عن الثقافة خوفاً من أن يظهروا بمظهر النخبويين.

و لتكلم بمنتهى الصراحة مهما كانت قيمة أو نوعية أو الأهمية الحيوية لبرنامج تلفازي، فإنه إن لم يحصل إلا على اهتمام شريحة ضيقة من «المثقفين المقتدرين»، يصبح برنامجاً نخبياً، ومن ثم محل جدل محتدم؛ ويجب استثناءه من الثقافة الشعبية الشابة فاقدة الجذور، إن محاولة توجيه برنامج مخصص للنخبة (الرجعية، البرجوازية، المحافظة... إلخ) إلى أكبر عدد من المشاهدين يدل على توجه نخبوي!».

### ابن الدعاية

«الهواء الذي نستنشقه مكون من أزوت وأوكسجين و دعاية ...»  
 «إذا كنت ترغب فعلاً أن تحقق مبيعات كبيرة، فعليك أن تستخدم أطفالاً كمساعدي بيع، فالطفل يروج للبضاعة، فهو يثير أعصاب أمه وأبيه حتى يجعلهم يشترون له ما يريد»، صرح بهذا مختص بالموضوع في المجلة الأمريكية عصر الدعاية.

والوسيلة المفضلة للتأثير على الأطفال هي التلفاز، أولاً: لأنه وسيلة لهوهم المفضلة: فهم يخصصون له 40% من وقت فراغهم، ويخصصون 12% من ذلك الوقت للمطالعة (وذلك عائد لأن المطالعة تحتاج إلى التمكن من القراءة، وهذا ليس ضرورياً لمشاهدة التلفاز).

إن الأطفال الأمريكيين «يمتصون» بحسب إحصائية فانس باكار 20000 مشهد دعائي في السنة، إن الدعاية التلفازية هي الأكثر تقديراً من قبل الأطفال (96%) وتليها دعاية المذياع (40% في استطلاعات الرأي)، وتليها الدعاية بالإعلانات في الطرق (34%) والدعاية في المجلات (34%).

نعم هذا صحيح! ولكن للتفاز قيمة الخاصة وثقافته التي تُسمى «أوديمات»، وله إحصائيات مشاهدة وله اعتباراته المادية!

والأطفال ليسوا منسيين في هذا السباق على الربح، وخاصة من قبل المعلنين على التلفاز.

في العام 1988م خصصت المجلة الفرنسية تيرسييل استطلاعاً للرأي يوضح هذه الفكرة: «إن حجم الاستهلاك يبلغ 400 مليار فرنك فرنسي». وبين هذا الاستطلاع أن الأطفال المولعين بالإعلانات لهم القول الأخير في 15% من مصاريف العائلات الفرنسية.

فاليوم البرامج التلفازية المخصصة للأطفال تسبقها وتليها وأحياناً تتخللها رسائل دعائية غرضها الترويج لسلع استهلاكية للأطفال مثل: الألعاب و ألعاب التسلية والحلويات، وللأهل كذلك؛ مثل اللبن والمنظفات ومعاجين الأسنان والأطعمة المجمدة، أو أطعمة القطط. إن مصنعي هذه المنتجات الأخيرة يعرفون قدرة الأطفال على إقناع أمهاتهم المتعبات عصبياً اللواتي يدفعن عربة التسوق في سوق تجاري يغص بالزبائن.

### الذاكرة والبيئة والمرجعية

«الثقافة هي ما يتبقى في الذهن عندما ننسى كل شيء» إننا نتذكر عندما كنا مراهقين كم وقفنا حائرين أمام موضوع تعبير يتعلق بهذه الفكرة، وبعد مرور ثلاثين عاماً فنحن ما زلنا مقتنعين بسطحية الفكرة.

فنحن إذا نسينا كل شيء، فلن يتبقى منا سوى شخص فاقد للذاكرة أو معتوه.

إن موضوع الثقافة هو مشكلة ذاكرة قبل أي شيء آخر، وإن تركيب جسدنا يقتضي ألا تكون الذاكرة فعالة إلا إذا اعتمدت على مرجعية ثابتة ترتبط عناصرها ببعضها ارتباطاً وثيقاً.

إن الذاكرة ليست رُكاماً من الذكريات أو الصور لا يُعرف رأسها من ذنبها، ولكنها عملية تولد أفكاراً جديدة يمكن استخدامها مباشرة اعتماداً على تجاربنا السابقة التي نُوليها اهتماماً وأهمية خاصة، ولكن ماذا يفعل التلفاز من خلال برامجه التي تُراعي كل الأذواق، وقدره الثقافية التي تصهر وتخلط كل الأفكار، وفوقها هذه التقنية الرائعة المُسماة بجهاز التحكم عن بعد؟

يسقي التلفاز الطفل بل يغمره ويغرقه بسيل مُستمر من المعلومات غير المترابطة وغير المتسلسلة.

هذا الموزاييك أو المزيج أو المشكال\* من المشاهد المانوية\* غالباً يجعل الطفل يظن بأن كل شيء له قيمة، وبأن الشيء وعدمه لهما نفس القيمة. وهذا يؤدي للבלاهة وانعدام الثقافة.

إن معرفة هذا الأمر تشكل صدمة قاسية للطيبين الذين كانوا يعتقدون أن الرائي يمكن له أن ينشر بين الناس عامة ما كان مخصصاً للنخبة. وهذه الصدفة تشابه تلك التي تلقاها أصحاب المبادئ الكرماء الذين كانوا يتخيلون قبل عدة عقود الوصول إلى مدرسة تقوم على المساواة وتزليل الفوارق الاجتماعية والثقافية.

\* المشكال: آلة أنبوية تحتوي على مرآة مركزية حيث إن الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها في الأنبوب تتحرك فتولد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان.  
\* مانوي: صفة من مذهب مانبي الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام.

المدرسة والتلفاز وهما بنتا مجتمعنا تتجهان على ما يبدو نحو غايات غير تلك التي وُضعت لها، إن الحاملين للطفاء نسوا ببساطة الدور الأساس الذي يلعبه الوالدان في تربية وتحضير الأطفال.

## حدثني عن ثقافة الجنس

### إن المهوسين بالتلفاز مولعون بالجنس

تعتقد محطة التلفاز الفرنسية الأولى TF1، إضافة لتجار الصور الآخرين، أن بإمكانها الوصول عن طريق إغواء المشاهدين البالغين الذكور إلى مستويات مشاهدة عالية جداً تُقارب تلك التي تحصل عليها برامج مخصصة للكبار مثل «هيلين والصبيان»: الدياثة(\*) ثم الجنس، إن العائق الوحيد في وجه تطور هذه التجارة الجنسية هو الهيئة العليا للإعلام (CSA)، التي تلعب دور الشرطي بالنسبة لمحطات التلفاز، ولكن هذه الهيئة أُسْتُهزئ بها عندما منعت عرض فواصل دعائية تتعلق بمستحضرات تستخدم للاستحمام، وأخرى لشركة بيجو للسيارات، وبسبب الحملة الشعواء عليها تكتفي الهيئة بتقنين أوقات عرض الأفلام والمشاهد الإباحية (الإباحية «الخفيفة») بعد الساعة الحادية عشر ليلاً، والجنسية الفاضحة بعد الثانية عشر ليلاً وحصراً على القناة الزائدة Canal plus، والقناة عبر الكبل المدعوة السينمائية Ciné-cinemas، والعودة إلى التصنيف الموجود لصالات السينما، يبدو هذا الحل كسولاً ولكنه فعال.

ولكن في بداية أيلول ستجد الهيئة العليا للإعلام نفسها وقد تجاوزتها الأحداث، فالزيد من المنتجات الإباحية ستأخذ شكل الأفلام التلفازية التي لا تعرض في صالات السينما.

(\*) الديوث في العربية هو الذي لا يبالي بانتهاك عرضه.

ثم وبحسب ما نشرته المجلة الأسبوعية الاختصاصية (CB News)، فإن رجال الإعلام الخبيثين قد وجدوا طريقة أخرى للعرض. فالمجموعة الإعلامية المشهورة كارا تُعد ما تسميه «الدراما المخصصة للكبار»، وهذا يعني أفلام عادية (مغامرات - حب -... إلخ) تُشبع بأكبر كم ممكن من المشاهد الإباحية.

وبفضل هذه التورية فإن الهيئة لن تفقه شيئاً، وستصل الأفلام لجمهور المشاهدين الذين يشاهدون التلفاز في الساعة الثامنة والنصف مساءً، وهذا سيمنع الصبية من التسكع في الطرقات. سيرج ريشار في الجريدة المشهورة «البطة المصفدة» في 1993/8/18.

إن الأمر دون شك خطير بالنسبة للمدرسة التي تستمر نفاقاً باستخدام لغتين متناقضتين إحداها احترام الطفولة، والثانية هي الاصطفاء الاجتماعي الضروري والمتكبر بأن واحد، وهذا الأمر أهون على التلفاز حتى يثبت العكس، فالرائي ليس علمانياً أو مجانياً أو إجبارياً، وهو بالخصوص لم يدع أبداً أن مهمته التعليم أو التثقيف، علينا أن نتقبل هذا الفانوس السحري الحديث العهد، ولا نتنظر منه أن يثقف أو يُربي أو أن يُشرف على متابعة أبنائنا بدلاً منا.

ولنترك مهمة تلخيص الموضوع للسيدة بيتلهام المريية و الإعلامية الأكثر جدارة منا، فالباب من الكتاب الذي نحن بصدده مُغرق في التشاؤم، ويدفعنا لإلقاء جهاز التلفاز في الشارع، وهو الحل الأسهل، أو إلقاء هذا الكتاب ومؤلفيه على قارعة الطريق: «التلفاز هو وسيلة إعلام صُنعت بغرض الترفيه؛ وإنها لا تساعد أبداً على استخدام المحاكمة العقلية المتوازنة، أو

دراسة محاسن أو مساوئ قضية ما ، فلا يمكننا أن نتنظر من وسيلة إعلام ما هو مُناقض لطبيعتها .

إن المعلومات التي نحصل عليها من خلال برامج التلفاز تميل لأن تكون ممثلة لرأي واحد ، إضافة إلى كونها بسيطة لحد السذاجة وغير مُحايِدة . ولذلك فإن الطفل الصغير لن يتعلم شيئاً يُذكر من خلال مشاهدة أفضل برامج التلفاز ، وحتى تلك المخصصة لسنه ؛ لأن تجربته في الحياة محدودة جداً ، أما البالغون والمراهقون فلهم نظرة إلى التلفاز بحكم خبرتهم تسمح لهم بتبني موقف ملائم ، وكي يتمكن الأطفال من القيام بذلك فهم بحاجة لمساعدة الراشدين .



«لا يمكن لأحد أن يكون مسؤولاً ويصاب باليأس بآن واحد»

كتاب طيار حربي للكاتب إيكزوبري (1900م – 1944م)

## الفصل السابع

### ما العمل؟

### ماذا على كل أن يفعل؟

إلى القراء الذين تحلوا بالصبر بمرافقتنا حتى الآن، أو إلى الذين قلبوا بسرعة فهرس الكتاب ليصلوا إلى الباب الأخير، كي يحصلوا على بضع وصفات سريعة ورخيصة ليحلوا مشكلة أطفالهم والتلفاز، نجب أن نقول وبأعلى صوتنا: بأنهم لن يجدوا خلال الصفحات التالية خطة يتبعونها عامة ومنقذة بآن واحد.

أولاً: لأنه لو كانت هناك خطة فنحن لم نجد لها بعد، ثم لأننا نرفض أن ندعي الحق والكفاءة في «إعطاء الدروس» في مجال كثرت فيه المتغيرات النوعية والاجتماعية والتعليمية وتنوعت.

### الوالدان اللذان لا يمكن استبدالهما

إن استنتاجاً تخلص إليه كل الكتب والدراسات واستطلاعات الرأي والوثائق المتعلقة بالتلفاز والأطفال هو: أن دور الوالدين والوسط العائلي الأساس في التعلم واكتساب المهارات، وفي إدارة الوالدين والوسط العائلي الأساس في التعلم واكتساب المهارات، وفي إدارة هذه الوسيلة الإعلامية المدهشة والمثيرة للجنون بآن واحد والسيطرة عليها، والتي تُدعى: التلفاز.